

الحلم

(الجزء الرابع من سلسلة الخطب)

لأبي عبد الرحمن

عبد الرقيب بن علي بن أحمد أبو عبد الرحمن الكوكباني

كان الله له في الدارين

بمسجد أم القرى صنعاء

حرسها الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣). أما بعد:

(١) سورة آل عمران: (١٠٢).

(٢) سورة النساء: (١).

(٣) سورة الأحزاب: (٧٠-٧١).

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

معاشر المسلمين، روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أتاه رجل فقال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»^(٤).

الملّ أي: الرماد.

في هذا الحديث العظيم الجليل أن هذا الرجل له قرابة كانوا يسيئون إليه ويكافئ إساءتهم بالإحسان، فأخبره النبي صلى الله عليه وآله وسلم منصور عليهم من الله، وأنه ظاهر عليهم، وأنه أكرم على الله منهم. «ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

^(٤) رواه مسلم (٢٥٥٨).

وصدق الإمام علي رضي الله عنه وأرضاه، أمير المؤمنين إذ يقول: إن أول عوض الله للحليم في حلمه: أن الناس كلهم أعوان له على الجاهل. «ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

معاشر المؤمنين، ما أحوجنا في مثل هذا الزمن أن نذكر أنفسنا بخصلة عظيمة وصفة من الصفات الشريفة وخلة من الخلال المنيفة ألا وهي صفة الحلم. هذا الحلم أصل أصيل وخلق نبيل في الشريعة الإسلامية. وهذا الحلم مفتاح للخير ومغلاف للشر لا سيما نحن في زمن فشى فيه البغي والعدوان والجهل والسفه والطيش والاستفزاز، نعم، وهذا أيها المسلمون، أعني البغي والعدوان له صور شتى فيما تفشى في الناس، أوله الكلام وآخره رمي السهام، أوله الكلام وآخره الكلام، والجراح، وآخره سفق الدم الحرام، وهذا حاصل.

وإن مما شجّع الناس على ذلك ضعف التقوى في القلوب الذي هو ناشئ عن ذهب العلم النافع في مجتمع الناس وفشو الجهل، فلما فشى في الناس الجهل لم يعرفوا قدر الدم الحرام، ولا قدر الإنسان المعصوم. ولذلك كثر الجهل والسفه والطيش والعدوان، واندرس العلم. ولو كان العبد يعلم عظيم إثم العدوان

والبغي ما تجرع على ذلك، ولكنه فشو الجهل واندراس العلم والبعد عن كجالس
الذالك الذي هي الرياض الناضرة من رياض الجنة.

والذي يشجع الناس على البغي والعدوان هو العمالة للكفار اليهود
والنصارى وسائر أهل الملل الكافرة بحجة أنه ربما نال عطاء يسيراً منهم، وهذا
من عرض الدنيا. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بادروا بالأعمال
فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً
ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»^(٥).

هب أنك تعاونت مع الكفار في رفع السيف وإعماله في أمة محمد صلى الله
عليه وسلم. هذا العطاء من الكفار غير مستمر -والله-. وهب أنه استمر زمناً
فهل هذا ينفع العبد يوم القيامة عند أن يسأل من الله الذي لا تخفى عليه الخافية،
وهذا أيضاً من جراً على الجهل والطيش والبغي والعدوان: العمالة للكفار.

وإن مما شجع على الجهل والاستفزاز والطيش هو مشاهدة الأفلام التي
تسمى بأفلام الرعب، وأفلام الحروب الوهمية، وأفلام الصراع الخيالي حتى إن
الشاب بعد هذا كله يخرج إلى الشارع يريد أن يطبق هذا عملياً في أقاربه وفي
جيرانه وفي سوقه وفي مجتمعه المسلم. ولذلك ينفلت اللسان، وتنفلت يده لأنه

^(٥) أخرجه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يشاهد هذا الخيال وهذا الوهم فيحب أن يطبقه في عباد الله، في الناس، في معصوم
الدماء، والأرواح والأنفس الزكية.

نعم أيها المسلمون. إن مما شجع على البغي والعدوان والسفه
والاستفزاز هو نسيان نعمة الإسلام أو تناسي نعمة الإسلام. فالإسلام هذه
النعمة العظيمة، هذا الدين العظيم جاء إلى الناس وهم في حالة وهم لا يُحمدون
عليها ولا يُحسدون عليها، يأكل القوي منهم الضعيف وهم شذر مذر لا يجمعهم
جامع وإنما هم كالوحوش في البرية فجاء الله بالإسلام فألف به بين القلوب
ونقلوا به من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام والتوحيد. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ
جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(٦).

قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام النجاشي: ... أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا
قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ
وَنُسِيءُ الْجَوَارِ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مَنَا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا
مَنَا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا

^(٦) سورة آل عمران: (١٠٣).

كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ
وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمُحَارِمِ وَالِدَمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ
الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ
وَحْدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ - قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ
الْإِسْلَامِ - (٧)

إلى غير ذلك مما ذكره جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه.

معاشر المسلمين، فحينئذ يتبين لنا أن أمر الحلم أمر مهم جداً لا سيما في
هذه الأزمان أن يتصف العبد بالحلم وباحتمال الجهل حتى يفوت الفرص على
الشیطان وحتى يجرم الشيطان مما أراد. ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ
الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ (٨).

ينزغ بينهم، ينزغ بين الجيران وبين الأقارب والإخوان، وبين الناس في
الأسواق، وبين الناس في مجالات الوظائف والأعمال. ينزغ بين الناس حتى في
قارعة الطريق، يلتقي الرجلين على السيارتين فإذا يتعاكسان وهذا يسبب هذا

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٦٦)/صحيح).

(٨) سورة الإسراء: (٥٣).

وهذا يطيش على هذا فما إن ينزلان على جنبتي الطريق إلا وتشب حرب مستعرّة
بينهما وربما قتل أحدهما الآخر. جهل واعتداء وكان خليقا بالعاقل أن يحلم في مثل
هذه المواطن فإن الحلم من الصفات.

وذي سفه يخاطبني بجهل ... فأنف أن أكون له مجيباً

يزيد سفاهة وازيد حلما ... كعود زاده الأحرار طيباً^(٩)

معاشر المسلمين، إن الله عز وجل قد اتصف بهذه الصفة العظيم وهذه الخلة
الكريمة صفة الحلم. نعم. ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ
بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١٠).

يمنع الله عز وجل على قوم يبادرون إلى اليمين وإلى القسم ألا يفعلوا
المعروف والبر وألا يصلحوا بين الناس. فحينئذ لا مهم على هذا. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ
عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَا

^(٩) نقله محمد بن حسين الحارثي الهمداني رحمه الله في "الكشكول" (٢/ ص ١٩٢).

^(١٠) سورة البقرة: (٢٢٥).

يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١١﴾.

عفا الله عنا ما يكون من لغو الكلام في الأيمن والقسم والحلف ولكن
يُؤَاخِذُنَا بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُنَا، فحينئذ إذا عقد العبد اليمين فقد تعلق في ذمته ولا
يخرج منها إلا براءته منها بالبراءة الشرعية كالكفارة التي ذكرها الله في كتابه. نعم
أيها المسلمون. ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ
حَلِيمٌ ﴿١٢﴾.

يعيب الله على قوم ليس من شأنهم الصدقة على المسكين والفقير وهم من
أهل اليسار والجدة والأموال وإن أنفقوا يوماً من الدهر فمن الحرام، وإن أنفقوا
يوماً من الدهر من حلال أموالهم فيسحب ذلك المن والأذى. وهذا ليس من
إقراض الله القرض الحسن. نعم، ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ﴿١٣﴾.

(١١) سورة البقرة: (٢٢٤-٢٢٥).

(١٢) سورة البقرة: (٢٦٣).

(١٣) سورة المزمل: (٢٠).

هذا وإن أعطيت لمسلمين والفقير لا يدخل في إقراض الله القرض الحسن. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٤).

ولذلك: ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (١٥)

قال: (والله غني حلیم) یجلم عما یحصل من الجهال أهل اليسار الذين إن أنفقوا جرحوا مشاعر المسكين والفقير جرحوا باطن المسكين والفقير، الله یجلم عنهم لأن الله هو الذي أعطاهم الأموال وأراد منهم أن یرحموا المسكين والفقير ولذلك یسكب الله عز وجل لمن أقرضه قرضا حسنا: ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (١٦).

(١٤) سورة البقرة: (٢٦٤).

(١٥) سورة البقرة: (٢٦٣).

(١٦) سورة التغابن: (١٧).

يشكر الله لك ويحلم عنك لأنه هو الحليم سبحانه وتعالى. نعم. ﴿إِنَّ
الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجُمُعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ
عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١٧).

انكشف المسلمون يوم أحد وتفرق شملهم ذات اليمين وذات الشمال،
وكان هذا مما لا ينبغي في صحبة النبي عليه الصلاة والسلام، ورسول الله بين
أظهرهم والنصر حليفهم ويصحبهم، ولكن الله قد عفا عنهم. إن الله غفور
حليم. لا تظننا يا عبد الله، يا من يتجاهل قدرة الله وجبروته وبطشهم واقتداره في
عباده، لا تظن أن هذا الحلم ناشئ من الله عن عجز وضعف وعدم اقتدار
لانتقام، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١٨)، إن الله بالمرصاد لكل ظالم، فحلمه
ناشئ عن الرحمة، عن لطف بعباده، عن إمهال لعل وعسى، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ
حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(١٩).

^(١٧) سورة آل عمران: (١٥٥).

^(١٨) سورة البقرة: (٢٠).

^(١٩) سورة فاطر: (٤١).

أرأيت هذا الذي يمسك السماوات والأرض مع ضخامتها وثقلها
وعظيم جرمها هذا هو الغفور الحليم، فليس عفوه وحلمه ناشئاً عن عجز ولكنه
ناشئ من لطفٍ سبحانه وتعالى. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ
وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا
غَفُورًا﴾ (٢٠).

الله حليم، متصف بالحلم، ولذلك ما أحلم الله على العصاة وعلى الكفار
والمنافقين والمشركين وسائر العصاة من المسلمين، ما أحلمه عليهم. ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ
اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ (٢١).

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ
أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢٢).

(٢٠) سورة الإسراء: (٤٤).

(٢١) سورة فاطر: (٤٥).

(٢٢) سورة النحل: (٦١).

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَبَدَّلَ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٢٣).

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ (٢٤).

لكنه حلِيم، لكنه يميل للظالم رحمة منه ولطفا بعباده لعله يتوب ولعله ينيب. ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (٢٥).

قال الحسن البصري: البصري: انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة! (٢٦).

(٢٣) سورة يونس: (١١).

(٢٤) سورة الكهف: (٥٨).

(٢٥) سورة البروج: (١٠).

(٢٦) ذكره الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٧ / ١٠٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾ مفهوم هذه الآية: أنهم لو تابوا لعفا الله عنهم ولغفر الله لهم. إنه كان غفورا حلِيمًا. الحلم عباد الله منقبة من المناقب التي يبحث عنها العقلاء والنبلاء من عباد الله، ولذلك كانت شيمة من شيم أنبياء الله ورسله.

هذا نور صلى الله عليه وسلم كان عبدا شكورا عند النعمة حلِيمًا عند المصائب التي يلاقيها من قومه وعشيرته. ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾^(٢٧)، وهم مع هذا كله: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُرْجُومِينَ﴾^(٢٨).

والرجم: الرمي بالهجارة حتى الموت. فيهم غطسة واستكبار وخيلاء وعناد. ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢٩).

^(٢٧) سورة العنكبوت: (١٤).

^(٢٨) سورة الشعراء: (١١٨).

^(٢٩) سورة هود: (٣٢).

وهو يصحبهم بالحلم وغيض الطرف عن إساءاتهم ولكن هذا كله لا ينفعهم، فأتى الله عز وجل بعذابه الذي يتلى الآيات فيه كل مسلم إلى قيام الساعة.

هذا نبي الله إبراهيم الأواه الحليم. ضرب الله للناس أمثالاً من حلمه وصبره، ضرب الله لنا مثلاً له مع أبيه الذي كان سداً منيعاً دون تبليغ دعوته إلى الناس. ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾^(٣٠).

هذا يقول لابنه إبراهيم. نعم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾. أول عتو انتصب أمامه في طريق الدعوة والده أزر. فلما مات هذا الوالد الظالم المشرك كان إبراهيم حليماً رحيماً فيحب أن يستغفر لأبيه لأنه وعد أباه أن يستغفر له. ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٣١).

^(٣٠) سورة مريم: (٤٦).

^(٣١) سورة التوبة: (١١٤).

كان حليماً ولكن المشرك لا تنفعه الشفاعة. ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (٣٢).

نعم. وأيضاً: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (٣٣).

ذكره الله بالحلم، نعم، لأن الحلم مفتاح السلم والطيش مفتاح الهلكة.

أيها المسلمون، هذا موسى من أنبياء بني إسرائيل بل هو أعظمهم وأكبرهم قدراً، أبلّي مع بني إسرائيل بلاء حسناً، أوذى بأنواع الأذى كله، حتى إنهم طعنوا في رجولته وهذا من أقبح الطعن ومن أسقطه وأخنع ومع هذا كله يلقاهم بالصبر والحلم، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم حلمه قدوة في الدعوة. هذا إذا أوذى رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر موسى فيقول: «يرحم الله موسى، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر» (٣٤).

(٣٢) سورة المدثر: (٤٨).

(٣٣) سورة هود: (٧٤-٧٦)..

(٣٤) أخرجه البخاري (٣٤٠٥) ومسلم (١٠٦٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾^(٣٥).

هذا نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم حدث ولا حرج، ما الذي كان يصدر منه من الحلم على أمته وعلى الأعراب وعلى المشركين حتى هداهم الله إلى الإسلام والإيمان وحلمه وأدبهم الجمّ وخلقه الرفيع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً تقاضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأغلظ له فهم به أصحابه، فقال: «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالا، واشتروا له بعيرا فأعطوه إياه». وقالوا: لا نجد إلا أفضل من سنه، قال: «اشتروه، فأعطوه إياه، فإن خيركم أحسنكم قضاء»^(٣٦).

كلاماً شديداً لا ينبغي أن يقال مع نبي ورسول، فهم الصحابة أن يبسطوا به. حلم عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصفح عنه لأنه هو النبي الحليم من ذرية إسماعيل، وكان إسماعيل نبياً حليماً، قال الله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ

^(٣٥) سورة الأحزاب: (٦٩).

^(٣٦) أخرجه البخاري (٢٣٩٠) ومسلم (١٦٠١).

حَلِيمٍ ﴿٣٧﴾. بَشَّرَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ يَعْنِي: إِسْمَاعِيلَ . وَهُوَ غُلَامٌ حَلِيمٌ . وَمِنْ نَسْلِهِ جَاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَذَا النَّبِيُّ الرَّسُولُ الْحَلِيمُ.

جاء في "الصحيحين" عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، نظرت إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أثرت بها حاشية الرداء، من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، ثم أمر له بعطاء (٣٨).

قال الأعرابي: (يا محمد) ولم يقل: (يا رسول الله) مع أن الله تعالى يقول: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ (٣٩).

وهو ابن عبد المطلب وهو نبي لا كذب. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» (٤٠).

(٣٧) سورة الصافات: (١٠١).

(٣٨) أخرجه البخاري (١٠٥٧) ومسلم (٣١٤٩).

(٣٩) سورة النور: (٦٣).

هو الذي كان الصحابة جميعا يتقون به بأس الأعداء إذا حمي الوطيس^(٤١)

في ساحة البطولة والشرف، ولكنه يلحم عمن جهل عليه. ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وأمر له بعطاء.

جاء في "الصحيحين" أيضا من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله وأرضاهما: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد، قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم

^(٤٠) أخرجه البخاري (٢٨٦٤) ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب رضي الله عنها بلفظ: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

^(٤١) أخرجه مسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب رضي الله عنها.

الأخشبين؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»^(٤٢).

في يوم أحد جرح وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكسرت ربايعيته، وهشمت البيضة على رأسه^(٤٣).

وذو الأخشبين جبل عظيم بمكة.

والآن اذهب إلى تلك البقاع الطاهرة المقدسة تجد أن الحجيج جاءوا من كل فج عميق. ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام استعجل الدعوة على قومه أن يهلكهم الله ما حصل هذا الخير ولكنه بحلمه صلى الله عليه وسلم حصل بذلك خير عظيم.

جاء في "الصحيحين" من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك، ففهمتها فقلت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مهلا يا

^(٤٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

^(٤٣) أخرجه البخاري (٢٩٠٣) ومسلم (١٧٩٥) عن سهل بن سعد رضي الله عنها.

عائشة، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله». فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فقد قلت: وعليكم»^(٤٤).

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارا به وتوحيدا وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما مزيدا، أما بعد:

معاشر المؤمنين إن صفة الحلم يحبها الله عز وجل بينما هي من صفاته وصفات أنبيائه، لكنها أيضا خصلة يحبها الله.

جاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وأرضاه: قال نبي الله صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»^(٤٥).

^(٤٤) أخرجه البخاري (٦٢٥٦) ومسلم (٢١٦٥).

^(٤٥) أخرجه مسلم (١٨). وجاء في "صحيح مسلم" أيضاً (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وسبب ذلك ما ذكره الإمام النووي رحمه الله في "شرح صحيح مسلم" أن سبب قول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك له ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة، بادروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرّب به النبي صلى الله عليه وسلم، وأجلسه إلى جانبه، ثم قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «تبايعون على أنفسكم وقومكم»، فقال القوم: نعم. فقال الأشج: يا رسول الله إنك لم تزاول الرجل عن شيء أشد عليه من دينه نبايعك على أنفسنا ونرسل من يدعوهم، فمن اتبعنا كان منا، ومن أبى قاتلناه. قال: «صدقت إن فيك خصلتين»، الحديث. ("شرح النووي على مسلم" / ١ / ص ١٨٩).

عباد الله، إن العبد إذا توسّل إلى الله باسم من أسمائه في وقت كرب وشدة يوشك أن يرفع الله الكرب عنه بعد نزول والشدة بعد حلولها ولذلك جاء في "الصحيحين" من ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو عند الكرب يقول: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض، ورب العرش العظيم»^(٤٦).

^(٤٦) أخرجه البخاري (٦٣٤٥) ومسلم (٢٧٣٠).

وإذاً: توسل إلى الله في حال الشدة العسر الذي يحيط بك ويحرق بك من كل جانب، وتريد المخرج من هذا البلاء الذي ألمّ بك توسل إلى الله باسمه الحليم، لأنه ما أصابتك الشدة إلا بذنوب قد صدرت فحيثئذ الله يحلم عن عباده وإن كانوا مسيئين: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض، ورب العرش العظيم».

عليك يا عبد الله إذا كنت عاقلاً ورزقك الله العقل وأنت محبوب في عشيرتك ألا تنسى التحلي بالحلم فإن العاقل في الناس إذا فقد الحلم ولو برهة من الزمن رجع إلى مستوى الجاهل فيطيش لسانه وتطيش يده وتطيش سهامه كان قبل هذا رجلاً عاقلاً. ولذلك قال أكثم بن الصيفي: إن الحلم دعامة العقل^(٤٧).

تأمل: هذا العقل، ودعامته من تحته الحلم. فكيف إذا ضربت هذه الدعامة يسقط العقل وتسقط مهابة الرجل العاقل.

كذلكم رجل عالم، لو كان الرجل عالماً في الناس وأكرمه الله بالعلم فعليه أن يتحلى بالحلم لأن الحلم يحفظ العلم ويدفع عن العلم النقائص والشين.

^(٤٧) "البديع في البديع" (لابن المعتز/ ص ٨٠).

فلذلك قال عطاء بن أبي رباح: ما أوى شيء إلى شيء أزين من حلم إلى

علم^(٤٨).

نسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا وأن يرزقنا بما ينفعنا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(٤٨) أخرجه الدارمي في سننه برقم (٥٩٦) بسند صحيح.